

يونس (ع) حجّته الحكمة والبيان



كان أهل نينوى في أرض الموصل من العراق، لا يختلفون عن غيرهم من الأمم الغابرة في المعتقد والتفكير، إلا بما انطوت عليه البيئة، أو فرضته سُبُل العيش. فقد عبدوا الأصنام، ووقعوا في حماة الجهل والشرك، حتى إنشَلَّت حياتهم الفكرية عن إدراك الحقائق السامية، والسمو إلى المُثُل العليا..

ولئن كانت حياة بني البشر في تلك الأزمان، قد قامت على الوثنية، إلا أنَّ إله سبحانه وتعالى، وهو خالق السماوات والأرضين، وما فيهنَّ، لا يترك عباده يهيمنون في مهاوي الضلالة والبغي، وفي دياجير الظلمة والضياع. فقد تجلَّت حكمته، وعَلَّتْ قدرته ببعث النبيِّين والمرسلين، هُداةً لأهل الأرض، ورأفةً بالخلق.. وحتى لا يكون لأهل نينوى حجّة على خالقهم كمثل أهل الأرض كلهم، فقد بعثَ فيهم نبيّاً، يحمل إليهم رسالة التوحيد، ويدلهم على طريق الإيمان الصحيح.. جاء نبي الله يونس (ع)، يدلي لبني قومه بحجّة ملؤها الحكمة والبيان، ويدفع بيّنة قوامها البرهان.. جاء يُحذِّرهم من من هوى النفس حتى لا يسلكوه فيجمعُ بهم إلى الضلالة، ويدعوهم إلى سلوك طريقٍ إن هم اتَّبعوه يقودهم إلى الهداية.. اعتمد في دعوته على دلائل العقل والمنطق، وعلى مشاعر النفس والوجدان.. فأبان للقوم أن يتفكَّروا

بما هم عليه من الخلق، وبأن ينظروا بما حولهم، وبكل ما يحيط بهم، فيدركوا بأن وراء هذا الكون، خالقاً ومُدبِّراً، ويؤمنوا بأن هذا الخالق واحد لا شريك له، يختصُّ وحده بالعبادة، وإسمه التقدير والتقديس، ولمجده الإجلال والتعظيم.. إنها دعوة للعقول والقلوب. فمن شاء اهتدى وطفّر، ومن جهل ضلّ وخسر.. وأخذ يذكرّهم بأنّ الله قد بعثه رحمةً بهم، ورأفة بأحوالهم، كي يدلّهم على آثار رحمة ربّه التي هي كفيلة بأن تهديهم إلى نِعَمه وآلائه، وإلى حكمته وعليائه، فاستمعَ القومُ ليونس، وهو يقول كلاماً لم يألوه من قبل.. ولكنهم دُهِشوا وهو يدعوهم لعبادة إله لا يرونه، وذُهِلوا وهو يُسِفِّه الآلهة التي كانوا يعتكفون عليها بعد آبائهم وأجدادهم.. فلم يتقبّلوا منه ذلك، وكبّر عليهم أن يكون هذا الداعية منهم وهو يخرج على المألوف من معتقداتهم، وينقم على الموروث من عاداتهم وتقاليدهم.. سيما وأن يونس من العامة فيهم، لا من أصحاب البيوتات الرفيعة، ولا من ذوي الشأن والنفوذ.. استغرب أهل نينوى لهذا الرجل تنصيب نفسه رسولاً عليهم مدّعيّاً هدايتهم، فأظهروا له العداوة، وجأهروه بالسفاهة، وهم يقولون: - هذيان وبهتان ما تدّعيه يا يونس.. أنتخلى عما نشأنا عليه في هذه الديار؟ إلى دين ابتدعته وتريد أن تُجاهدنا فيه؟!.. رأى يونس أن يدفع التهمة التي يصبونها بها، وهم أولى بالإتهام مما يدعون عليه زوراً وبهتاناً، فارتفع صوته مندداً بجهالتهم وصرخ فيهم: - يا قوم! ارفعوا غشاوة التقليد عن عيونكم، ومزّقوا نسيج الأوهام عن عقولكم، وإنني كفيل بأنّكم ستجدون هذه الأصنام التي تتوجّهون إليها صباح مساء تافهة، وأنتم تنوّهون في الاعتماد عليها لقضاء الحاجات فإنها لا تدفع عنكم شرّاً، ولا تجلب لكم نفعاً.. إنها لا تشفي مريضاً، ولا تردّ صالاً. وهي لا تخلق مولوداً، ولا تُحيي ميّتاً.. يا قوم!.. ما لكم تُعرّضون عن دين يأمر بتقويم أموركم، واستقامة أوضاعكم، ورفع أخلاقكم؟!.. وما بالكم ترفضون ما فيه صلاح الأُمّة والفرد فيكم، ويفضي إلى شاطئ الأمان في حياتكم؟. لقد شاء يونس أن يجادلهم بالحق، وأن يُبيّن لهم طريق الصواب، ولكنه لم يظفر منهم إلا بقناعة الجاهلين، ولم يغنم إلا بجدال المتعنّتين.. لقد أنكروا عليه دعوته، وراحوا يؤلّسون القريب والبعيد، حتى يحقّ رواه ويذمّوه.. لقد رأى يونس القوم وهم يعمدون إلى النيل منه بالتهكّم والسخرية. ويقومون على أذّيته بالإحتقار والإذلال.. إنهم يريدون أن يُظهروه للملأ مناً لمعتقداتهم بادّعاء كاذب، وخارجاً على عاداتهم وتقاليدهم. برأي فاسد.. وتمادوا في محاولاتهم به، وهو يتحمّل كل ما يبذلون وما يضرّون. ولم يأبه لما يفعلونه به، وظلّ على دعوته؛ ولكنه وهو يراهم على الضلالة يصرّون، قام يحذّرهم من سوء عاقبة ما يفعلون، فقال لهم: - يا قوم! لقد دعوتكم ونصحت لكم، وقد جادلتكم بالتي هي أحسن، فإذا كانت دعوتي تصل إلى قرارة نفوسكم كان الخير الذي أرجوه والإيمان الذي أبتغيه، وإلا فإنني

أُنذركم عذاباً واقعاً وبلاءً نازلاً، وهلاكاً قريباً، سترون طلائعه، وتتقدم إليكم دلائله.
قالوا: يا يونس، ما نحن بمستجيبيين لدعوتك، ولا خائفين من وعيدك، فأترنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين. ولم يطق يونس (ع) صبراً بل ضاق بهم ذرعاً، وقطع الرجاء منهم بعد
مطاولتهم، وهزئهم به، فدعا الله تعالى أن ينزل عليهم العذاب، فاستجاب الله دعوته في ساعة
ما، فخرج يونس من بين أظهرهم ليتنحى عن مكان سخط الله وغضبه، ولم يكذب بتعد قليلاً عن
نينوى حتى وافت أهلها نذر العذاب واقتربت منهم طلائع الهلاك. فقد اغتر الجو حولهم،
فنظروا إلى أنفسهم فوجدوا أن ألوانهم قد تغيرت ووجوههم قد تشوشت، فساورهم الخوف
وداخلهم القلق، عندما أيقنوا أن دعوة يونس (ع) حق وإنذاره صدق، وأن الله سيمصيهم ما
أصاب الأمم السالفة. فآمنوا بالله العلي العظيم واستغفروه، وتابوا إليه وخرجوا إلى شفاف
الجال وبتون الصحاري يضرعون ويبكون ويتوسلون أن يتقبل الله توبتهم، وأن يرفع عنهم
العذاب. وفرقوا بين الأمهات وأطفالها، والإبل وفُصْلانها، والبقر وعجلها، والغنم
وحملانها ثم أعول الجميع لفراق أولادهم، فصاحت الإماء ورغت الإبل، وخارت البقر، وثغت
الغنم، حتى تلاشت النفوس وصغرت، وذابت الغطرسه وامسحت، وكانت ساعة رهبة. فبسط الله
عليهم عند ذلك جناح رحمته ورفع عنهم سحائب نقمته، إذ كانوا في توبتهم صادقين وفي
إيمانهم خالصين بالله رب العالمين، وبلغ من توبتهم أن بدأوا برد المظالم بينهم حتى أن
الرجل كان ليأتي بالحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه إلى صاحبه، فحبس الله
عنهم العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مطمئنين، وودّوا أن يعود إليهم يونس (ع) ليعيش
بينهم رسولاً ونبيلاً ومعلماً وإماماً. ولكن يونس (ع) كان قد ذهب مغاضباً.. ورحل
عنهم يائساً.. وقد فارقهم وترك ديارهم طمعاً بأن يجد القوم الذين يفهمون رسالته
ويستجيبون لدعوته... وأخذ يضرب في الأرض، ويجد في السير حتى انتهى إلى البحر، وهناك
وجد جماعة يعبرون، فسألهم أن يصحبوه معهم، ويحملوه في سفينتهم، فقبلوه على ارتياح للطف
سؤاله، وإشراقة وجهه. وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً ومقاماً عزيزاً، ولكنهم ما إن
ابتعدوا عن الشاطئ وجاوزوا اليابسة، حتى هاجت الأمواج، وهبت الأعاصير، وتوقّع
الراكبون في السفينة سوء المصير، فراغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وطنّ كل
منهم أن الله هالك، وفي جوف البحر غارق، ففكّروا بأمرهم فلم يجدوا سبيلاً إلى نجاتهم، إلا
أن يخفّوا من حمولتهم، فقالوا كيف؟ فاتّفقوا على الإقتراع... وساهم الجميع ووقع
السهم على يونس... ولكنهم ضدّوا به تكريماً لما رأوه منه. فعادوا للمساهمة وعاد السهم
على يونس.. فضنوا به أيضاً نظراً لمكانته التي احتلها يونس (ع) من نفوسهم، وعادوا
للمساهمة، فعاد السهم عليه. فعلم يونس (ع) أن هذه مشيئة من الله عز وجل، وأن من
وراء ذلك سرّاً، وأن في ذلك تدبيراً.. ثم أدرك أن الله استعجل في تركه لقومه، قبل أن

يَأْذَنُ ۖ سَبَّحَنَاهُ لَهُ بِالْهَجْرَةِ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَانُوا عِنْدَمَا يَدَاهُمُ قَوْمُهُمُ الْعَذَابُ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ إِلَّا بِأَمْرِ مِنَ ۖ. وَكَانَ عَلَى يُونُسَ (ع) أَنْ يَنْتَظِرَ قَضَاءَ ۖ فِيهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْحَى ۖ إِلَيْهِ أَنْزَّهُ مَعَذَّرَ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَتَذَكَّرَ ذَلِكَ يُونُسَ (ع) وَذَكَرَ ۖ تَعَالَى. فَوَقَفَ عَلَى حَافَةِ السَّفِينَةِ وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ، وَأَسْلَمَ أَمْرَهُ لِرَبِّهِ. الْأَمْوَاجُ تَقْلَلَتْ بِدُفْعِهِ بَيْنَ طَيِّفَاتِهَا وَتَحْشَرَتْهُ فِي دِيَاغِيرِ طُلُومَاتِهَا، وَإِذَا بِحَوْتٍ ضَخْمٍ الْجَنْبُ طَوِيلِ الْجَسْمِ، يَتَعَقَّبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ ۖ الْحَوْتَ الْمَسْخُورَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ أَنْ يَدْبُرَ تَلَايَعَهُ عَلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ لَحْمَهُ وَلَا يَشْرَبَ عِظَمَهُ لِأَنَّهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ تَعَجَّلَ فِي مَفَارِقَةِ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْذَنَ ۖ تَعَالَى لَهُ، فَلْيَكُنْ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فِتْرَةً حَتَّى يَقْضِيَ ۖ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا.. فَابْتَلَعَهُ الْحَوْتُ وَرَاحَ يَشْقُ الْأَمْوَاجَ وَيَهْوِي إِلَى الْأَعْمَاقِ، فَضَاقَ صَدْرُ يُونُسَ (ع) وَفَزَعَ إِلَى ۖ وَاسْتَغَاثَ اسْتَغَاثَةَ الْمَلْهُوفِ وَلَجَأَ إِلَى ۖ لَجَأَ الْمَكْرُوبِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَابَ ۖ لَهُ دَعَاةً وَأَوْحَى إِلَى الْحَوْتِ أَنْ اصْعِدْ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَاقْتَرِبْ مِنَ الشَّاطِئِ الْأَيْمَنِ، وَأَلْقِ بِضَيْفِكَ فِي الْعَرَاءِ. فَأَلْقَاهُ الْحَوْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سَقِيمًا هَزِيلًا مَرِيضًا عَلِيلًا، فَتَلَقَّتْهُ رَحْمَةُ ۖ الْوَاسِعَةِ وَأَنْبَتَتْ فَوْقَ رَأْسِهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ أَكَلَ مِنْ ثَمَرِهَا وَاسْتَظَلَّ بِوَرَقِهَا فَبَدَأَتْ تَعُودُ إِلَيْهِ الْعَافِيَةُ وَتَظْهَرُ فِيهِ تَبَاشِيرُ الْحَيَاةِ. وَلَمَّا اسْتَوَى سَلِيمًا وَرَجَعَ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ أَوْحَى ۖ إِلَيْهِ أَنْ ارْجِعْ إِلَى بِلَدِكَ وَمَوْطِنِ قَوْمِكَ وَعَشِيرَتِكَ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا فَنَفَعَهُمُ الْإِيمَانُ وَنَبَذُوا الْأَصْنَامَ وَالْآنَ يَتَحَسَّسُونَ مَكَانَكَ وَيَرْقُبُونَ مَجِيئَكَ. فَعَادَ يُونُسَ إِلَى قَوْمِهِ وَحَمْدَ ۖ وَشَكَرَهُ عَلَى نِعَمِهِ لِأَنَّهُ فَارَقَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِمْ شَاكِرٌ لِلرَّحْمَنِ، وَعَادَ إِلَيْهِمْ وَمَا فِيهِمْ إِلَّا أَلْسِنَةٌ تَلْهَجُ بِذِكْرِ رَبِّ الْأَكْوَانِ. سَلَامَ ۖ عَلَى يُونُسَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْمُسَبِّحِينَ. وَلَقَدْ ذَكَرَ ۖ سَبَّحَنَاهُ وَتَعَالَى يُونُسَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ: (وَذَا الذُّنُوبِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاظِبًا فَطَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء / 87-88). وَفِي سُورَةِ الصَّافَاتِ: (وَإِنْ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِ لَكَ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَفَعَمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَرْسَاهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لِلَّيْلِ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَبْعَثُونَ * فَنَادَى نَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَأَمَدُّوا فَمَتَّعْنَاهُمْ * إِلَى حِينٍ) (الصافات / 139-148). وَفِي سُورَةِ يُونُسَ: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمًا يُونُسَ لَمَّا آمَدُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخَرْزِيِّ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (يونس/ 98). المصدر: كتاب
قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث (داود وسليمان ويونس)